أهمية علم الآثار في الدراسات التاريخية.

د/ طارق بن زاوي.

أستاذ محاضر أ

جامعة محمد بوضياف المسيلة

tarek.benzaoui@univ-msila.dz

مقدمة:

إنّ البحث العلمي في التاريخ ليس بالأمر السهل كما يظنه البعض، و يحتاج الباحث فيه إلى نفس طويل و إلمام بمعارف و علوم كثيرة تساعده في عمله وتفضي به إلى تحقيق النتائج المرجوة، ولن أكون مخطئا إذا قلت أنّ علم الآثار من أشد العلوم ارتباطا بالتاريخ، بل هو التاريخ نفسه الذي نراه متجسدا في تلك البقايا والمخلفات المادية التي نجت من عاديات الزمن والعوامل الطبيعية التي أخفت وقضت على الكثير منها، فإذا كان ماضي الإنسان قد نعرفه وندرك بعضا أو كثيرا من حوادثه عبر المصادر الأدبية، فإنّ البقايا المادية التي لا زالت لحد الساعة قد تؤكد بما لا يدع مجالا للشك معارفنا النظرية التاريخية المتعلقة بتاريخ منطقة معينة، وتجعل منها حقائق علمية غير قابلة للنقاش.

وفي هذه المداخلة الموسومة بـ: "**أهمية علم الآثار في الدراسات التاريخية**" سنحاول الحديث عن علم الآثار وأهميته في الدراسات التاريخية من خلال إيراد أمثلة توضح الحاجة الملحة لهذا العلم في الوصول بالباحث إلى الحقيقة التاريخية التي هي الهدف الأساسي الذي يسعى المؤرخون الجادون إلى بلوغه.

1.تعريف علم الآثـــار.

لا يمكن للباحث في الآثار أن يكون بعيدا عن التاريخ فهو يرتبط به ارتباطا وثيقا، وعلم الآثار يبحث عن مخلفات الماضي وبقاياه الأثرية واستخراجها من باطن الأرض بالأساليب العلمية المتبعة في التنقيبات ودراستها لإستخراج الدلالة التاريخية عن أحوال الماضي، فالبحث عن الآثار أو التنقيبات هو في الحقيقة البحث عن مادة التاريخ الأولى، أي عن أصوله وموارده، وهي أولى المهام التي يضطلع بها المؤرخ الباحث[1].

ولنقل أيضا إنّ علم الآثار يدرس ماضي الإنسان على ضوء المخلفات القديمة والنادرة ومحاولة تفسيرها واستنباط الحقائق التاريخية منها، وهو علم يفحص هذه المخلفات لمعرفة تاريخها ولتحديد الحضارة التي أنتجتها والأغراض الدنيوية التي كانت تستخدم فيها، فهو يكب على دراسة المخلفات الأركيولوجية المتباينة من أطلال المدن والقصور والمعابد والمسلات والمدافن والأساليب القديمة للري والأدوات الحجرية والفخارية والمعدنية والمنشآت المدنية والعسكرية والسدود والقناطر والطرق وغيرها، فلقد سجّل القدماء في كثير من الأحيان على هذه المخلفات شيئا من تاريخهم ومعتقداتهم ونظمهم وانتصاراتهم العسكرية، ومن تمّ فإنّ مكانة الآثار في التاريخ لا يكاد يضاهيها أي مصدر مكتوب في هذا المجال[2].

وقيل في علم الآثار أيضا إنّه دراسة الحجارة القديمة وبصورة أعم دراسة جميع الأشكال الملموسة والمنظورة التي تحفظ أثر النشاط البشري[3].

ونشأ علم الآثار في العصور القديمة، حيث كان هناك اهتمام بجمع وحفظ الآثار والتحف الفنية، ويمكن القول إنّ هوميروس هو أب علم الآثار[4]، ولكن البداية الحقيقية لهذا العلم كان في القرن التاسع عشر، عندما بدأ الباحثون والعلماء في تطبيق المنهج العلمي على دراسة الآثار واستخلاص المعلومات منها. وقد شهد علم الآثار تطورًا كبيرًا في القرن العشرين مع ظهور تقنيات جديدة للحفريات والتنقيب والتحليل المعملي للآثار.

2. أهمية علم الآثار: وتكمن أهمية دراسة علم الآثار في دراسة ماضي البشرية من حقيقة أنّ الشواهد الأثرية هي أقل عرضة للتلف والفناء من غيرها من الشواهد التاريخية، وأكثرها قدرة على مقاومة عوامل الطبيعة وعوادي الزمن وعوامل التخريب المتعمد والحرق والإفساد الذي يحدثه العابثون بشواهد ماضي الأمم، غير أنّ أمثال هؤلاء الجهلة قد ينجحون أحيانا في طمس المعالم الأثرية[5].

وتبرز أهمية علم الآثار كذلك في الدور الذي يلعبه بالمساعدة على فهم ماضي الشعوب والمجتمعات القديمة، كذلك يساعد على اكتشاف كل ما خلفته تلك الحضارات من آثار. ولعل الدور الأهم لهذا العلم يكمن في الحفاظ على التراث الإنساني.

ويركز مجال علم الآثار على دراسة ما خلفته الحضارات والشعوب القديمة من آثار وأدلة مادية لفهم تطور حياة البشر. ويعتمد العلماء في هذا المجال على الحفر والتنقيب لاستخراج الآثار كالأدوات والهياكل التي من شأنها أن تساعد على تسليط الضوء والكشف عن أنماط الحياة والعادات الاجتماعية والثقافية للمجتمعات والحضارات القديمة.

3.دور علم الآثار في الدراسات التاريخية:

وقد حدث هذا التخريب المتعمد الهمجي في بلادنا، فقد عمد المستدمر الفرنسي الصليبي الإرهابي منذ تدنيسه أرض الجزائر الطيبة إلى تدمير طمس الكثير من المعالم الحضارية الإسلامية في كثير من مدننا وإضفاء صبغة غربية عليها، وذلك بهدف قطع صلتها بماضيها وفصلها عن أمتها العربية الإسلامية، و في القابل فإنّ الفرنسيين الهمجيين لم يمسوا الآثار الرومانية إطلاقا بل حافظو عليها واعتنوا بها و درسوها، وهم بذلك يهدفون إلى إضفاء الشرعية التاريخية على احتلالهم الجزائر، زاعمين أنّ شمال إفريقيا كانت أرضا رومانية صليبية نصرانية اغتصبها واحتلها العرب المسلمون فيجب أن تعود كما كانت.

و في سياق التأكيد على أهمية علم الآثار في كشف الحقائق التاريخية يجدر بنا أن نذكر المثال التالي الذي يؤكد زيف ادّعاءات المستشرقين بتحريف القرآن، فقد اكتُشِفت أقدم مخطوطة قرآنية في العالم عام 2015م في جامعة برمنغهام البريطانية، وأحضر تلك المخطوطة للجامعة هرمز منغنا الشهير بألفونس منغنا

(1878-1937)، وهو لاهوتي وباحث ومستشرق كلداني، وتضم تلك المخطوطة صفحتين من القرآن الكريم من سورتي الكهف وطه، مكتوبتين بالخط الحجازي، استخدم الخبراء في علم المخطوطات الفحص الإشعاعي بواسطة الكربون المشع، وتبيّن أن عمرها يبلغ نحو 1370 عامًا، واستنتج العلماء أن المخطوطة قد دونت في الفترة ما بين 568م(أي قبل الهجرة النبوية بسنوات و645م (24هـ)، وكانت بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام بين عامي 610م و632م، وهذا يعني أن المخطوطة دونت من قبل شخص عاصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعاش معه، أو خلال 70 عاما من البعثة على أقصى تقدير، وهو ما يجعلها من أقدم نسخ القرآن في العالم، وتعتبر المخطوطة جزءًا من مجموعة مينجانا للمخطوطات الشرق أوسطية، وتحتفظ بها مكتبة كادبوري للأبحاث في الجامعة، وقد صرح البروفيسور ديفيد توماس، أستاذ الأديان في جامعة برمنغهام، لصحيفة "وول ستريت جورنال (The Wall Street Journal) "بأن المخطوطات القرآنية، خاصة تلك التي تمتلكها جامعة برمنغهام الأقدم في العالم بأسره، تعد دليلًا دامغًا على أن القرآن بنسخته الحالية هو نفسه الذي كان يتداوله أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم ويحفظونه، وأنه لم يتعرض للتحريف"[6].

ومنذ أن احتل اليهود الشطر الشرقي من القدس عام 1967 إلى اليوم، وهم يحاولون العثور على أي أثر يدل على بقايا الهيكل المزعوم، ويثبت مكانه تحت الحرم القدسي الشريف، وقد قامت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة بإجراء حفريات وأنفاق تحت أسوار جبل بيت المقدس، وتحت أسوار المسجد الأقصى من جانبيه الغربي والجنوبي، وامتدت الحفريات إلى الأرضية الداخلية تحت ساحة المسجد، وتحت مسجد النساء داخل المسجد الأقصى واستمرت الحفريات بشق نفق واسع طويل اخترق المسجد من شرقه إلى غربه، وأقام اليهود في النفق كنيس يهودي صغير، افتتحه رسميا رئيس الدولة ورئيس الوزراء الإسرائيلي عام 1986م، ولقد أثبت علماء الآثار من اليهود والأوروبيين وغيرهم الذين نقبوا واشتغلوا بالحفريات والأنفاق تحت الحرم القدسي الشريف أنه لا يوجد أثر واحد لهيكل سليمان تحت الحرم القدسي، مما دفع بعضهم إلى أن يقول إن الهيكل قصة خرافية ليس لها وجود[7].

ويجب الإشارة إلى أنّ الحفريات الأثرية تحت المسجد لم تسفر إلا على إلقاء الضوء على أثار من العهود الإسلامية، ولم يجد اليهود الصهاينة أية أدلة تؤكد أن الهيكل المزعوم قد أقيم في أي وقت في هذا المكان، فهذه الآثار الأموية والعباسية والعثمانية، تدل على إسلامية المسجد الأقصى البحتة، التي لا يشترك معها فيها أي ديانة أخرى، وينسف الادعاءات الباطلة لليهود، بوجود أي أثر لهم في المسجد الأقصى[8].

ولقد تتبع الكاتب " محمد الأسعد" جهداً كبيراً في متابعة أعمال المنقبين عن الآثار ومؤلفاتهم وتصريحاتهم، فخط لنا كتابه القيّم "مستشرقون في علم الآثار: كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ"، وتوصل "الأسعد" بعد كل هذه السنوات من متابعة عمل علماء الآثار الغربيين ومن اتبعهم من العرب وما نشر عن نتائج أعمالهم، إلى التأكيد على أن هذه الدراسات الإستشراقية وما نشرته من تصورات في العالم الغربي عن الوطن العربي بعامة وفلسطين بخاصة، ساهمت في تبرير المذابح والإحتلالات المتواصلة للوطن العربي، واشاعة البهجة والحماس في نفوس الرأي العام الغربي لسنوات طويلة، ولم يعد دور المستشرقين في خدمة مؤسسات بلادهم الاستخباراتية والعسكرية والقيام بوظائف لا تتعلق لها بالعلم مجهولا[9]، ولعل أكثر أفاعيل الإستشراق وضوحاً وبخاصة في مجال علم الآثار، هو دوره في التمهيد لاحتلال فلسطين وإبادة سكانها وقراها وتبرير إقامة كيان استعماري على أرضها، وفي هذا السياق يكشف " الأسعد " عن حقيقة أن تفسير النص التوراتي لاهوتيا، والربط بينه وبين المكتشفات الأثرية بتزوير هذه الآثار طوراً، وتحريف قراءة النقوش القديمة طوراً لتنسجم مع التفسير اللاهوتي، لعب الدور الأكبر في انتاج ماضي بلادنا العربية، "فوضع تاريخه ولغاته وفنونه والمكتشفات الأثرية في سياقات غريبة لا تنتمي الينا، بقدر ما تنتمي الى صورة متخيلة مستمدة من المرويات التوراتية"، وأن باحثاً مثل "وليم فوكسويل البرايت" أخترع علم تنقيب أطلق عليه اسم "علم الآثار التوراتي" وجعله لا يهيمن على ما يسمونه الشرق الأدنى القديم فقط، بل على مساحة جغرافية وزمنية واسعة الى درجة كاريكاتورية، فأصبح المجال الجغرافي والزمني لعلم آثاره هذا يضم حسب تخيلاته كل ما اعتبرها أراض توراتية تمتد من الهند الى اسبانيا ومن جنوب روسيا الى جنوبي الجزيرة العربية، ويضم زمنيا تاريخ هذه الأراضي كله منذ عشرة آلاف عام قبل الميلاد، بل وأقدم من ذلك وصولا الى الزمن الراهن.

وفي مقال نشره موقع سكاي نيوز عربي تتضح الأهمية البالغة لعلم الآثار في كشف حقيقة بعض النظريات العلمية التي كنا نرى إلى نرى أنها حقائق ثابتة لا يمكن الطعن فيها، ويشير المقال أن "نظرية فيثاغورس" الشهيرة يمكن أن تكون أقدم حالة "سرقة أدبية" معروفة في العالم، ويعود الفضل إلى فيثاغورس الفيلسوف اليوناني القديم المولود عام 570 قبل الميلاد، في ابتكار الرياضيات التي تساعد في العثور على الجانب المفقود من المثلث القائم الزاوية، وتقول نظرية فيثاغورس إنه "في المثلثات القائمة الزاوية، مربع طول الضلع المقابل للزاوية القائمة يساوي مجموع مربعي طولي الضلعين الآخرين"، لكن عالم رياضيات معاصر اكتشف لوحا بابليا قديما يحمل مفهوما يسبق ميلاد فيثاغورس بأكثر من 1000 عام، بحسب ما أفادت صحيفة الديلي ميل البريطانية، وعالم الرياضيات الذي أجرى البحث هو بروس راتنر، حاصل على درجة الدكتوراه في الإحصاء الرياضي والاحتمالات من جامعة روتغرز، وتمت ترجمة الأدلة من لوح طيني يحمل اسم "واي بي سي YBC 72897289 "، تم تشكيله بين عامي 1800 و1600 قبل الميلاد، والذي

يستخدم مبادئ نظرية فيثاغورس لحساب طول القطر داخل المستطيل، ويعتقد الخبراء أن الفيلسوف اليوناني القديم ربما سمع عن النظرية شفهيًا وقام بنشرها، لكنه جعلها خاصة به.

رسم راتنر الأرقام من خلال الترجمة من القاعدة 60، وهو نظام العد الذي استخدمه البابليون القدماء، الأساس 60، المعروف أيضًا باسم النظام الستيني البابلي، هو نظام رقمي يستخدم الرقم 60 كقاعدة له بدلاً من الأساس 10 (الرقم العشري) الأكثر شيوعًا الذي نستخدمه في حياتنا اليومية، في النظام الستيني، يتم تمثيل الأرقام باستخدام 60 رمزًا أو رقمًا مختلفًا، تمامًا مثل كيفية استخدام الأرقام من 0 إلى 9 في نظامنا العشري، وبعد دراسة القرص والأرقام البابلية، وصل راتنر إلى نتيجة مفادها أن القيمة المذكورة على اللوح الطيني عبارة عن الجذر التربيعي للرقم 2، وقال إن "الاستنتاج لا مفر منه"، وتابع موضحًا في الدراسة أن هناك عاملين يتعلقان باللوح الطيني "لهما أهمية خاصة"، الأول هو أن العلامات تثبت أن البابليين عرفوا كيفية حساب الجذر التربيعي لعدد ما بدقة ملحوظة، لقد فهم مبتكر اللوح الطيني غير المعروف طريقة بسيطة للحوسبة منذ ما يقرب من 4000 عام: "ضرب جانب المربع في الجذر التربيعي لاثنين"، وكتب راتنر: "ولكن يبقى سؤال واحد بلا إجابة: لماذا اختار الناسخ ضلعًا من 30 لمثاله"، وأضاف "من المحتمل أنه تم استخدام الرقم 30 من أجل الراحة، لأنه كان جزءًا من النظام البابلي الستيني، من هنا يمكن للمرء أن يستمد الاستخدام الحديث لـ 60 ثانية في الدقيقة، و60 دقيقة في الساعة، و360 (60 × 6) درجة في الدائرة".

وكان علماء من جامعة يوساوث ويلز (أونسو) في أستراليا تمكنوا من التعرف على قرص طيني بابلي يعود تاريخه إلى 3700 سنة باعتباره أقدم وأحدث جدول في الحسابات المثلثية في العالم، وباختصار، يكشف هذا الجدول أن البابليين سبقوا الإغريق القدماء في اختراع علم المثلثات لأكثر من 1000 سنة، الأمر الذي يؤكد ما توصل إليه راتنر أعلاه، والجدول الذي ظهر على اللوح الطيني في علم المثلثات يعتبر الأكثر دقة وكذلك الأقدم في العالم، ما يعني أن البابليين هم من اكتشفوا قاعدة فيثاغورس قبل مئات السنين من العالم اليوناني الذي سميت القاعدة على اسمه[10].

وممّا كشفه لنا علم الآثار من حقائق حول أصل الإنسان ما يعرف بإنسان پلتداون أو يوانتروپس Eoanthropus هي حفرية إنسان وجدها العالمان "دُوسُن Dawson "و "وُودوُورد " Woodwardعند "بلِتداون" في مقاطعة سسكس بإنجلترا، سنة 1911، وترجع أن يكون تاريخها من نحو مليون سنة إلى 125.000 قبل الميلاد.

كانت خدعة كبيرة قدمت فيها بقايا عظام متحجرة على أنها تعود للإنسان الأول، هذه البقايا تتألف من عظام فك و أجزاء من جمجمة جمعت في عام 1912م،

من محجر حصى في پلتداون شرق سسكس في إنجلترا، أعطي لهذه العينة اسم الأنسان الفجري أو باللاتينية Eoanthropus ، ظلت أهمية هذه القطع المتحجرة موضع جدل حتى سطعت الحقيقة في عام 1953م، وهي أن هذه القطع ما هي إلا قطع مزورة تم تركيبها عمدًا، فالفك السفلي هو لقرد الغاب وبقايا الجمجمة تعود لجمجمة إنسان حديثة، خدعة إنسان بلتداون ربما تعد الخدعة الأشهر في مجال الحفريات والآثار وحتى على الصعيد العلمي وذلك لسبب رئيسي مهم وهو طول المدة التي مضت حتى كشفت الحقيقة ما يقرب من 40 عام[11].

ولم تسلم الجغرافية من تشويه بعض علماء الآثار، وكمثال على ذلك جغرافية شبه الجزيرة العربية على يد علماء الآثار التوراتيين ، ويقوم على تحويل جزيرة العرب إلى شبه جزيرة بحدودها الحالية متجاهلين أن العرب كانوا يقصدون بمصطلح "جزيرة العرب" ما ذكره الهمداني في كتابه "صفة جزيرة العرب" وهي حدود تمتد من مياه الخليج ونهري دجلة والفرات وصولا إلى جبال طوروس، ثم انحدارا مع شاطئ البحر الأبيض المتوسط إلى نيل مصر، فالبحر الأحمر وصولا إلى المحيط الهندي من الجنوب[12].

ويزداد الأمر تشويها عند افتراض أن الجزيرة المختزلة حدودها إلى حدود شبه الجزيرة العربية حاليا كانت معزولة عن الحضارة قبل القرن السابع الميلادي، متجاهلين مركزية دورها في التاريخ العالمي، فهي كانت موضع أطماع اللخميين والساسانيين والرومان والبيزنطيين، وحاول الإسكندر المقدوني غزوها، وسبب ذلك يرجع إلى أنها كانت ملتقى طرق التجارة الدولية، فمنها كان يمر طريق العطور الشهير، وبعد انتهاء دور العطور بانتهاء المعابد الآشورية والمصرية التي كانت تستعملها، تحولت الطريق إلى طريق عظيمة للتوابل وخاصة الفلفل الذي كان سلعة ثمينة في أوروبا لدوره في حفظ اللحوم من الفساد، وقد أدى ذلك إلى نشوء مراكز حضارية كبيرة في الجزيرة العربية مثل دولة الأنباط التي برزت على طريق العطور، وكذلك تدمر التي دمرها الرومان بعد قرنين من تدمير البتراء.

خاتمة: وأخيرا نخلص إلى أنّ علم الآثار من العلوم الخادمة لعلم التاريخ، فإذا كان التاريخ يحاول الوصول إلى تصوير الماضي كما وقع أو قريبا منه، وقد يصل إلى نتائج أحيانا شبه مؤكدة فإنّ ما يصدّق ذلك وينقله من رتبة شبه المؤكد إلى رتبة المؤكد أو القطعي علم الآثار، فلا مناص حينها للمؤرخ الذي يريد أن يرتفع بأبحاثه التاريخية إلى درجة أرقى والوصول إلى نتائج باهرة إلا أن يكون لعلم الآثار نصيب كبير من اهتماماته.

[1] د/عبد الواحد ذو النون طه، **أصول البحث التاريخي**، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2004م، ص ص 55-56.

[2] د/ محمد عبد الكريم الوافي، **منهج البحث في التاريخ والتدوين عند العرب**، منشورات قان يونس، بنغازي، الطبعة الثالثة، 2008م، ص 66.

[3] جورج ضو، تاريخ علم الاثار، ترجمة : بهيج شعبان، منشورات عويدات، بيروت، ص7.

[4] نفسه، ص18.

[5] د/ محمد عبد الكريم وافي، مرجع سابق، ص66.

[6] رابط المقال:

https://www.aljazeera.net/arts/2022/1/20/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AE%D8%B7%D9%88%D8%B7%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86%D9%8A%D8%A9

[7] محمد علي الصلابي ، **أسطورة هيكل سليمان عند اليهود.. هل تصمد أمام الحقائق التاريخية؟** موقع الجزيرة . نت، تاريخ النشر: 2023/10/12 .

رابط المقال:

https://www.aljazeera.net/blogs/2023/10/12/%D8%A3%D8%B3%D8%B7%D9%88%D8%B1%D8%A9-%D9%87%D9%8A%D9%83%D9%84-%D8%B3%D9%84%D9%8A%D9%85%D8%A7%D9%86-%D8%B9%D9%86%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%8A%D9%87%D9%88%D8%AF-%D9%87%D9%84-%D8%AA%D8%B5%D9%85%D8%AF

[8] د/بشير إسماعيل حمو، هيكل سليمان في عقيدة اليهود وأثره في هدم المسجد الأقصى، مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية غزة، مجلد 29، عدد2، ص344.

[9] محمد الأسعد، مستشرقون في علم الآثار كيف قرأوا الألواح وكتبوا التاريخ، دار مسعى للنشر والتوزيع، الكويت، ص6 ومابعدها.

[10] رابط المقال :

https://www.skynewsarabia.com/technology/1659068-%D8%B3%D8%B1%D9%82-%D9%81%D9%8A%D8%AB%D8%A7%D8%BA%D9%88%D8%B1%D8%B3-%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%AA%D9%87-%D8%A7%D9%84%D8%B4%D9%87%D9%8A%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D8%A8%D9%84%D9%8A%D9%8A%D9%86%D8%9F

[11] لمزيد من التفاصيل ينظر المقال كاملا على الرابط التالي:

https://www.marefa.org/%D8%A5%D9%86%D8%B3%D8%A7%D9%86_%D9%BE%D9%84%D8%AA%D8%AF%D8%A7%D9%88%D9%86

[12] لسان الدين الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمذاني، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، 1990، ص39.